لبنان: إشكالية لا تزال قائمة

رغم كل ما مرَ على لبنان من أحداث وتوافقات، فإن عام ٢٠٠٠، يعتبر مفصليا بالنسبة للبنان، وللطائفة الشيعية على وجه الخصوص. فقبل هذا التاريخ كان لبنان بلدا مستضعفا صغيرا، عرضة لإنهكات لسيادته وحقوق شعبه، مختلفة الأشكال والمصادر. وكانت الطائفة الشيعية مكونا، كبقية الكونات، إن لم نقل أقل تقديرا برأي البعض. الدليل على ما نقول أن اتفاق الطائف في حسابات الطائفيين لم يكسب الشيعة أي امتياز، رغم أنهم المكون البشري الأكثر عددا، وأنهم كونوا قاعدة الحركة الوطنية التينشأت في منتصف السبعينات، ولم تنطفء إلا عام ١٩٩٠، إذا أردنا أن نعتبر أن السنوات التي انقضت منذ ذلك الحين هي سنوات هدوء، رغم أنها لم تكن كذلك تماما.

شهد عام ٢٠٠٠ انتصار المقاومة بمكونها الشيعي الطاغي، ومن خلالها انتصار لبنان. تحول لبنان فجأة من بلد محتل مستضعف إلى البلد العربي الوحيد الذي استطاع طرد العدو الصهيوني دون مساومات. أدى انتصار المقاومة، بأغلبيتها الشيعية إلى إعادة تموضع الطائفة، وإعادة طرح الأوراق الوطنية من جديد على بساط البحث. أدركت الطوائف الباقية أن الإنتصار الذي أحرزته المقاومة سيصب في النهاية في مصلحة الطائفة المرجحة. كان ذلك وراء الإهتزازات التي تم التعبير عنها بأشكال مختلفة: منها مسألة نزع سلاح حزب الله؛ ومنها محاولة استبعاد الرئيس السابق إميل لحود، لقربه من المقاومة، إلى حد اعتباره شيعيا؛ ومنها إخراج السوريين الذين اعتبروا مساندين للمقاومة، وبالتالي للشيعة في لبنان. ولكن أليس الحكم في سوريا "علويا". بقيت مسألة إيران التي، بدل أن تشكر على مناصرتها للبنان كي يطرد المحتل، وضعت في خانة الأعداء من قبل البعض. سرعان ما انقسم الشعب اللبناني مع المنقسمين من الدول العربية والأقليمية والعالم إلى فئة "ممانعة" وهي التي تدعم المقاومة، وفئة "معتدلة"، حسب تعبير بوش الرئيس الأميركي الأسبق.

كان المقصود التخلص من إمكانية تفوق الطائفة الشيعية بأي وسيلة حتى لو كانت حرب إبادة وتدميرية كتلك التي شنتها إسرائيل عام ٢٠٠٦، وشجعتها الإدارة الأميركية، وسكتت عليها، حتى لا نقول أكثر، بعض الدول العربية المعتدلة، وبعض اللبنانيين أيضا.

غير أن نتيجة الحرب لم تات بما كان متوقعا. وخرجت المقاومة ومعها الطائفة الشيعية، ولبنان بانتصار جديد أو صمود جديد. كان له وقع أكبر من انتصار عام ٢٠٠٠. السبب أن انتصار عام ٢٠٠٠ قد مكن البعض من التشكيك به، معتبرين أن إسرائيل هي التي انسحبت من تلقاء نفسها. أما في عام ٢٠٠٦، فقد اعترفت إسرائيل ذاتها بأنها انهزمت أمام رجال حزب الله.

يدرك قادة الطائفة هذه الحقيقة، لكنه ليس بإلإمكان المطالبة بتغيير الحال. خصوصا وأن ذلك لا يجدي، فالمطلوب هو بناء وطن وليس الحصول على مكاسب لهذه الطائفة أو تلك.

الإشكالية التي كانت قائمة في أوائل السبعينات وأدت إلى الحرب الأهلية، لا تزال قائمة اليوم. أما السبب فلا يعود إلى أن المقاومة قد انتصرت وانتصرت معها الطائفة الشيعية، بل لأن هناك عيوب أساسية في النظام السياسي اللبناني لم تتم معالجتها، رغم الحرب الأهلية التي استمرت خمسة عشر سنة، ورغم اتفاق الطائف الذي أتى ببعض الحلول، أهمها إلغاء الطائفية السياسية. غير أن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ. لعل ذلك يعود إلى أن القائمين على الأمر في البلد ليس من

صالحم الشخصي أن يبنون دولة بل الإستمرار بالتحاصص وتشكيل المافيات على مختلف الصعد، وترك المواطنين يواجهون مصيرهم بأنفسهم.